القصص القرآني

سلسلة لقاءات قدمت في رمضان 1439 هـ

إبراهيم عليه السّلام

أ. أناهيد السميري

اللّقاء الثّالث عشر

مدونة علم ينتفع به

www.tafaregdroos.blogspot.com

بسم الله الرّحمن الرحيم

أخواتنا الفاضلات، إليكنّ سلسلة تفاريغ من دروس أستاذتنا الفاضلة أناهيد السميري حفظها الله، وفّق الله بعض الأخوات لتفريغها، ونسأل الله أن ينفع بها، وهي تنزل في مدونة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ)

http://tafaregdroos.blogspot.com/

تنبيهات هامة:

- ✓ منهجنا الكتاب والسّنة على فهم السّلف الصّالح.
- ✓ هذه التّفاريغ من اجتهاد الطّالبات ولم تطّلع عليها الأستاذة حفظها الله.
- ✓ الكمال لله عزّ وجلّ، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم فيه من خطأ فمن أنفسنا والشّيطان، ونستغفر الله.

والله الموفّق لما يحبّ ويرضى.

مقدّمة:

الحمد لله ربّ العالمين والصّلاة والسّلام على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين

مازلنا في الأخبار عن إبراهيم عليه السّلام، وقد وصلنا في الكلام عنه في سورة الأنعام _ في مقام مُجادلة أهل الباطل _ وهذا المقام من أشرف مقامات إبراهيم عليه السّلام، ظهر على يديه الحقّ في التّوحيد، وقد تبيّن لنا حال قومه في هذه المُناظرة من كونهم عَبَدَةً للكواكب وماذا كانوا يعتقدون أصلًا في الكواكب.

{وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ}

نرى الآن ماذا قال الله عزّ وجلّ بعد المُناظرة، فلن ندخل في تفاصيل المُناظرة، وإنّما أوّلا نرى ماذا قال بعد أن حكى لنا المُناظرة:

في آخر المناظرة يعني في الآية ٨٣ قال الله عزّ وجلّ: **{وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ}** ماذا نفهم؟ نفهم أنّ هذه المناظرة حُجّة احتجّ بها إبراهيم على قومه، بمعني: أنّ الله علّمه، وبيّن له، وأمره أن يحتجّ، والحُجّة إنّما يُقصد بها هنا: الحُجّة العقليّة، الّتي بها بيّن إبراهيم صحّة التّوحيد وبُطلان الكُفر والشّرك، **فلا يظنّ ظانّ أبدًا أنّ إبراهيم عليه السّلام قد وقع في الشّك**، وليس هذا بداية لإيمان إبراهيم، بل الله عزّ وجلّ قال بعد انتهاء هذا الخبر: **{وَتِلْكَ}** هذا مبتدأ يشير إلى ما مضى من المجادلة **{حُجَّتُنَا}** هذا خبره **{آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ}** هذه صفة للخبر، فهذا يدُلّنا على أنّ تلك الحُجّة إنّما تلقّنها إبراهيم عليه السّلام من ربّ العالمين، فهو الّذي علّمه أن يُحَاجّهم بهذه الطّريقة، وهذه الحُجّةُ تُسَمَّى: **التَّنَزُّلُ مَعَ الخَصْمِ**.

فقال الله عزّ وجلّ بعدها: **{نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ}** وهذه الحُجّة من رِفعَة المنزلة لإبراهيم عليه السّلام فمن رفعة المنزلة آتاه الله تلك الحُجّة، وعلّمه وبيّن له؛ ورِفعَة المنزلة هذه بسبب ما مضى معنا **{قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ}** مُقبِل على كلّ موطن وهو مُتعَلّق بربّ العالمين، راغب فيما عند ربّ العالمين، فرفعه الله بإيتائه الحُجّة **{إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ}** وهذه من أعظم صفات الله الّتي تظهر في اختياره من يشاء أن يُجري على يديه الحقّ، فالله عزّ جلّ حكيم عليم بأحوال الخَلق، عليم بصدقهم، عليم بما في بواطنهم من إرادة للحقّ والحرص عليه، **ورفعه لدرجات النّاس هي من آثار حكمة الله وعلمه.**

---

[١] [الأنعام: ٨٣]

[٢] [البقرة: ١٨١]

ولهذا مهما كان الإنسان صاحب حُجّة وصاحب لسان **ولم يكن صادقًا لإرادة وجه ربّ العالمين**، فإنّه لابدّ في نهاية الأمر أن **يُفْضَحَ** ولابدّ أن يظهر في نهاية الأمر كذبه وإرادته للشُهرة أو للشّهوة، مهما كان في بداية الأمر يظهر أنّه صاحب حجّة.

إذًا فهمنا من هذه الآية أنّ إبراهيم عليه السّلام في هذه المناظرة تنزّل مع الخصم، ولم يكن هذا بداية إيمانه، ولم يكن وقتها قال: {هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ} يقصد بذلك حقيقة الرّبوبيّة، إنّما يتنزّل معهم على قولهم هم[٣]؛ وهذا أهمّ ما تفهمين من جهة عقيدتك في إبراهيم عليه السّلام، أنّ الله أظهر حُجّته سبحانه وتعالى على لسان إبراهيم، فإبراهيم أظهر حُجَّةَ الله تعالى في التّوحيد، ونصر دين الله وذبّ عنه، هذه حالة إبراهيم.

سَنُكمِل لنرى بعد ذلك كيف عامله ربّ العالمين؟

لمّا إبراهيم عليه السّلام فعل هذا وأظهر حُجَّةَ الله تعالى، والله شَكُورٌ، أعطاه سبحانه وتعالى نِعَمًا وأحسن إليه، وفي الآيات الّتي في سورة الأنعام إشارة إلى ذلك.

أوّلًا لا ننسى **أنّ الله هو الّذي مَنَّ عليه بتلك الحُجَّةِ ووفّقه فيها**، فنفس الحجّة من أشرف النِّعم، ومن أجلّ مراتب العطايا، لا ننسى هذا، فهذه منزلة بنفسها منزلة، ومن هذه المنزلة تسمع أنّ الله رفعه، لأنّه قال: {نَرْفَعُ} فالله عزّ وجلّ خصّه بالرّفعة، حسنًا هذا متّصل بنفس الحُجَّة.

فإذًا بعد هذه الحُجَّة وبعد هذا المقام، جعله الله عزيزًا في الدّنيا، أين نجد هذا؟ قال سبحانه وتعالى:

{وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ}[٤]

نعم إنّه مُحْسِنٌ فكان هذا من جزائه، وكان هذا من عزّته، وسنقف عند هذا المعنى طويلًا، فقال:

{وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٨٥) وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ}

فسنرى كيف أنّ الله عزّ وجلّ جعله عزيزًا؟ لمّا ننظر إلى ذرّيته سنرى أنّ أشرف النّاس وهم الأنبياء والرُّسل وهم من نَسله وذرّيته، وأبقى هذه الكرامة في نسله إلى يوم القيامة، وهذا من أعظم ما يُدخل السّرور على الإنسان ويُسبّب له الرّفعة لمّا

[٣] [الأنعام: ٧٨]

[٤] [الأنعام: ٨٤]

[٥] [الأنعام: ٨٥_٨٦]

يعلم المرء بأنّ أبناءه سيكونون صالحين، وفي موقف إبراهيم عليه السّلام علم بأنّه سيكون **من عقبه الأنبياء وحتّى الملوك**؛ وهنا عُدّد عليه أنواعًا من النِّعم، لا تنسوا أنّ كلّ هذا بسبب أنّه ذبّ عن التّوحيد، وجاهد من أجل التّوحيد، وأنّه بذل من أجل بَيان الحقّ.

دعونا نتأمّل في الآيات ونرى كيف هذه العلاقات الموجودة في الآيات كانت من الإشارة إلى كَرامته، فقيل: {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ} وإسحاق هذا ابنه من صلبه، وأتى بعده يعقوب مباشرة.

لاحظوا ما ذُكر إسماعيل هنا بل ذُكر إسحاق ويعقوب، وربّما هذا ابتداءً لبيان ذكر الأنبياء الّذين خرجوا من صلبه وهم بِأَسْرِهِمْ أولاد إسحاق ويعقوب.

إسماعيل عليه الصّلاة والسّلام لم يخرج من صلبه أحد من الأنبياء إلاّ محمّدًا صلى الله عليه وسلم، فكأنّه يُقال: لمّا ترك إبراهيم عليه السّلام الشّرك وتمسّك بالتّوحيد رزقه الله النّعم العظيمة في الدّنيا والدّين، ومن النّعم العظيمة في الدّنيا أن آتاه الله أولادًا كانوا أنبياء ومُلوكًا، يعني كأنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم يتكلّم، يقول لهم هذا الأمر.

{كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ} نوح ليس من ذرّيّة إبراهيم عليه السّلام فكيف يكون مكافأة له؟ الله أعلم أنّ الله عزّ وجلّ يبيّن أنّ إبراهيم عليه السّلام في أصله من أشرف الأنساب، فنوح أبٌ للبشريّة بعد آدم، فكأنّه هذا نسبه ليس آزر وليس قومه إنّما نسبه من نوح، كأنّه يُقال: من باب تشريف نسب إبراهيم، يُقال: أنّ الله أخرجه من أصلاب آباء طاهرين، من هم هؤلاء؟ نوح عليه السّلام، فأتت كرامة إبراهيم عليه السّلام بحسب الأولاد وبحسب الآباء.

ثمّ قيل: {وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ} وهنا تجد التّرتيب عجيب: لا يوجد الأسبقيّة الزّمنية ولا بالصّلة من جهة الأب، والمتوقّع أن تكون هناك رعاية في التّرتيب.

ذكر الله عزّ وجلّ أربعة من الأنبياء أوّلاً:

١. نوح.
٢. وإبراهيم.
٣. وإسحاق.
٤. ويعقوب.

ثمّ ذكر من ذرّيتهم أربعة عشر من الأنبياء:

١. داوود.
٢. وسليمان.
٣. وأيّوب.
٤. ويوسف.
٥. وموسى.
٦. وهارون.
٧. وزكريّا.
٨. ويحيى.
٩. وعيسى.
١٠. وإلياس.
١١. وإسماعيل.
١٢. وإليسع.
١٣. ويونس.
١٤. ولوطا.

فيكون كلّ المجموع ثمانية عشر، وسنرى أنّ هذا التّرتيب أيضًا فيه إشارة لفضل إبراهيم عليه السّلام، والواو حرف لا يوجب التّرتيب، لا بحسب الشّرف ولا بحسب الزّمان، وإنّما رتّبوا هنا على حسب الخاصّيّة.

١. ونحن هنا نناقش ابتداء من داود، **فداود وسليمان** كان لهما النّصيب الأعظم في المُلك والسّلطان، فقد أُعطي داود وسليمان من هذا الباب نصيبًا كبيرًا، فعبدا الله بِعبادة الشُّكر **فكانا نموذجًا لشُكر الله**، وهذا فيه ثناء على والدهما الّذي يعودان إليه وهو: إبراهيم عليه السّلام.

٢. ثمّ ذُكر **أيّوب** وهو المشهور في **مقام الصّبر على البلاء**.

فاشتُهر داود وسليمان في مقام المُلك والقدرة والسّلطان، وقاما بواجبهما في هذا المقام.

واشتُهر أيّوب في مقام البلاء والمحن والشّدائد، وقام بوظيفته وهو: الصّبر.

٣. ثمّ ذُكر **يوسف عليه السّلام** وهو مَنْ **جمع بين الصّبر على البلاء والشّكر على السّرّاء** لأنّه جمع بين البلاء والمحنة فهذا معروف في قصّته، إلى أن آتاه الله مُلكَ مصر مع النّبوّة طبعًا.

فاجتمع لإبراهيم عليه السّلام أبناء فيهم المُلْكَ فشكروا، وأبناء أتت لهم البلايا فصبروا، وأبناء جُمِعَ لهم بين الابتلاء وبين النّعم فصبروا وشكروا.

٤. **وموسى عليه السّلام** قد اشتهر في الأنبياء بكثرة المُعجزات وقُوّة البراهين، وخُصّ بَعْدَهُمْ بالذّكر لأنّ هذه من المنازل؛ يعني من فضائل الأنبياء عليهم السّلام قوّة المُعجزات والمَهابة والصّولة، فموسى عليه السّلام كان نموذجًا للتّقريب العظيم من ربّ العالمين وللتّكريم فهو: **كليم الله**.

فأتى بعدهم للكلام عن أصناف النِّعم الّتي أتت على إبراهيم في ذرّيّته: الشّكرين، الصّابرين، الّذين جمعوا بين الشّكر والصّبر، الّذي جمع أعظم مقامات النّبوّة فكان كليم الله.

٥. وأتى بعد ذلك **مرتبة الزُّهد والإعراض عن الدّنيا وترك مُخالطة الخَلق** كما في **زكريّا ويحيى وعيسى وإلياس** _ وهذا والله أعلم _ سبب وصفهم أنّهم من الصّالحين.

٦. ثمّ ذُكر بعد ذلك الأنبياء الّذين **لم يبقى لهم بين الخلق أتباع وأشياع** مثل **إسماعيل وإليسع ويونس ولوطًا**.

وهذا الأمر قد ذكره: (صاحب محاسن التّأويل، القاسمي)[٦]

لمّا نتأمّل في ذِكْرِ الأنبياء سنرى الجملة الأخيرة العظيمة الّتي وُصف بها جميع الأنبياء: {وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ} في كلّ الأحوال كان الجزاء لإبراهيم الّذي دافع ونَافَحَ عن التّوحيد، أن يجعل الله له أنسًا وشرفًا ومَنْزِلَةً لعشيرتِه، فرفعهم الله عزّ وجلّ هذه الرّفعة، وهو سبحانه وتعالى حكيم عليم، ولهذا قال:

[٦] محاسن التأويل _ القاسمي (١٣٣٢ هـ) _ تفسير الآيات من ٨٤ إلى ٨٦ سورة الأنعام.قال القاسمي : (اعْلَمْ أَنَّهُ تَعالى ذَكَرَ هُنا ثَمانِيَةَ عَشَرَ نَبِيًّا مِنَ الأنْبِياءِ عَلَيْهِمُ السَّلامُ مِن غَيْرِ تَرْتِيبٍ، لا بِحَسْبِ الزَّمانِ، ولا بِحَسْبِ الفَضْلِ؛ لِأنَّ الواوَ لا تَقْتَضِي التَّرْتِيبَ. ولَكِنْ هُنا لَطِيفَةٌ في هَذا التَّرْتِيبِ، وهي أنَّ اللَّهَ تَعالى خَصَّ كُلَّ طائِفَةٍ مِن طَوائِفِ الأنْبِياءِ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ بِنَوْعٍ مِنَ الكَرامَةِ والفَضْلِ، فَذَكَرَ أوَّلًا نُوحًا وإبْراهِيمَ وإسْحاقَ ويَعْقُوبَ لِأنَّهم أُصُولُ الأنْبِياءِ، وإلَيْهِمْ تَرْجِعُ أنْسابُهم جَمِيعًا. ثُمَّ مِنَ المراتِبِ المُعْتَبَرَةِ، بَعْدَ النُّبُوَّةِ، المُلْكُ والقُدْرَةُ والسُّلْطانُ. وقَدْ أعْطى اللَّهُ داوُدَ وسُلَيْمانَ مِن ذَلِكَ حَظًّا وافِرًا. ومِنَ المراتِبِ الصَّبْرُ عِنْدَ نُزُولِ البَلاءِ والمِحَنِ والشَّدائِدِ، وقَدْ خَصَّ اللَّهُ بِهَذِهِ أيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلامُ. ثُمَّ عَطَفَ عَلى هاتَيْنِ المَرْتَبَتَيْنِ مَن جَمَعَ بَيْنَهُما، وهو يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلامُ، فَإنَّهُ صَبَرَ عَلى البَلاءِ والشِّدَّةِ إلى أنْ آتاهُ اللَّهُ مُلْكَ مِصْرَ مَعَ النُّبُوَّةِ، ثُمَّ مِنَ المراتِبِ المُعْتَبَرَةِ في تَفْضِيلِ الأنْبِياءِ عَلَيْهِمُ السَّلامُ كَثْرَةُ المُعْجِزاتِ، وقُوَّةِ البَراهِينِ، وقَدْ خَصَّ اللَّهُ مُوسى وهارُونَ مِن ذَلِكَ بِالحَظِّ الوافِرِ. ثُمَّ مِنَ المراتِبِ المُعْتَبَرَةِ الزُّهْدُ في الدُّنْيا، والإعْراضُ عَنْها، وقَدْ خَصَّ اللَّهُ بِذَلِكَ زَكَرِيّا ويَحْيى وعِيسى وإلْياسَ عَلَيْهِمُ السَّلامُ، ولِهَذا السَّبَبِ وصَفَهم بِأنَّهم مِنَ الصّالِحِينَ، ثُمَّ ذَكَرَ اللَّهُ مِن بَعْدِ هَؤُلاءِ الأنْبِياءِ، مَن لَمْ يَبْقَ لَهُ أتْباعٌ ولا شَرِيعَةٌ، وهم إسْماعِيلُ واليَسَعُ ويُونُسُ ولُوطٌ. فَإذا اعْتَبَرْتَ هَذِهِ اللَّطِيفَةَ عَلى هَذا الوَجْهِ، كانَ هَذا التَّرْتِيبُ مِن أحْسَنِ شَيْءٍ يُذْكَرُ، واللَّهُ أعْلَمُ بِمُرادِهِ، وأسْرارِ كِتابِهِ)

{وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٨٧) ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [٨]

هُدَى الله هو **معرفة التّوحيد، وتنزيه الله عن الشّرك**، فيكون من ورائه عبادة الله وحده لا شريك له، ولو أشركوا وهذا احتمال في حقّ الأنبياء **مستحيل**، لكن قال الله عزّ وجلّ: {وَلَوْ أَشْرَكُوا} يعني هؤلاء أصحاب المكانة العظيمة لو وقع منهم الشّرك ماذا سيكون رغم مكانتهم العظيمة؟ لابدّ أن تعرف **أنّ هذه المكانة إنّما كانت بسبب التّوحيد**، لكن هؤلاء مع عظمتهم ومكانتهم لو وقع منهم الشّرك لحبط عنهم ما كانوا يعملون من الأعمال المُرضية الّتي يحبّها الله، فكيف بمن عاداهم؟ وهذا تشديد لأمر الشّرك وتغليظ لشأنه، وهو كما ترون شرط، **والشّرط لا يقتضي جواز الوقوع**، يعني: هم لم يقعوا فيه.

سنبقى نفكّر في إبراهيم عليه السّلام ومكانته المبنيّة على التّوحيد، وعلى أنّ كلّ من وراءه ما صُدِّرُوا ولا أصبح لهم مكانة إلاّ بسبب التّوحيد، فأتباعه الآن الّذين هم أتباع النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لابدّ أن يعرفوا أنّ المكانة العظيمة لإبراهيم عليه السّلام إنّما كانت من جهة التّوحيد، من جهة معرفته، والتّلبّس به، والمُدافعة عنه.

فلهذا قال الله عزّ وجلّ:

{أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ} [٩]

{أولئك الّذين آتيناهم الكتاب} بمعنى: أنّ هؤلاء الأنبياء الثّمانية عشر المتّصفين بما ذُكِرَ من الهداية، آتاهم الله عزّ وجلّ الكتب السّماويّة، فأنزلها عليهم، وفهّمها إيّاهم، ومكّنهم منها، فإمّا نَزِلَتْ عَلَيْهِمْ أو وَرِثُوهَا ممّن كان قبلهم.

وأيضًا أُخْبِرْنَا أنّ الله عزّ وجلّ آتاهم الحُكْمَ بمعنى: الحِكْمَةَ والفصل بين الأمور، وهذا نوعُ مِيراثٍ من مِيراثِ النُّبُوَّةِ أن يكون هناك حُكْم وحِكْمَة فالله آتاهم {الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ}.

ثمّ أتى الخطاب لمن يصلح له الخطاب من العرب ومن قريش وغيرهم: {فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا} يكفر بالكتاب والحُكم والنُّبوّة.

{هَؤُلَاءِ} يعني: قريش ومن في حُكْمِهِمْ. {فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا} يعني: وفّقنا للإيمان بها {قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ} سواء مَنْ سبق من أهل الإيمان أو من سيأتي، بمعنى: لن يخسر في هذه المعركة إلاّ أهل الباطل، لأنّ الله سينصر نبيّه ويُقوّي دينه ويجعله

---

[٧] نافَحَ: (فعل) ينافح، مُنافحةً، فهو مُنافِح، والمفعول مُنافَح، نَافَحَ عنه : دافَعَ. [معجم المعاني الجامع]

[٨] [الأنعام: ٨٧_٨٨]

[٩] [الأنعام: ٨٩]

مُستَعليًا على كلّ من عاداه، فدين الله سيكون قاهرًا لكلّ من نازعه، ومن قرأ التّاريخ عرف هذه الحقيقة وتيقّن بها، وعرف الأزمنة الّتي يُختبر النّاس بالإيمان بها.

{أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ}

والآن إرشاد لنبيّنا: **{أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ}** إشارة إلى الأنبياء كلّهم أنّ الله هداهم إلى الصّراط المُستقيم، ماذا يُطلب من النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم؟ ويُطلب ممّن وراءه؟ **{فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ}** يعني: بطريقتهم في الإيمان بالله، وفي توحيد الله، وفي المُدافعة عن دين الله، في أخلاقهم، وفي أفعالهم، وفي صفاتهم اعمل؛ فهذا يُوجّه للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم فما بالكم بنا؟

فمن المؤكّد أنّ الاقتداء بالأنبياء وخاصّة بنبيّنا صلّى الله عليه وسلّم أمرٌ جليلٌ عظيمٌ، ويُبتدأ بالاقتداء بهم في توحيدهم، وفي إبطال الشّرك، وإثبات التّوحيد، فكأنّه يُقال: هذا طريقهم في الاعتقاد والعمل، فما هو المطلوب منك؟ اقْتَدِ بهؤلاء.

فإذًا هذا موقفنا من نبيّنا صلّى الله عليه وسلّم ومن الأنبياء قبله، أنّهم كلّهم سائرون على نفس الطّريق، وأيضًا هذا يُشعرنا **أنّ نبيّنا صلّى الله عليه وسلّم قد جمع صفات الشّرف الّتي كانت مُفرّقة في هؤلاء الأنبياء بأجمعهم**، يعني:

- ✓ داوود وسليمان عليهما السّلام ← كانا من أصحاب الشّكر على النّعمة؛ وهذا نبيّنا.
- ✓ وأيّوب عليه السّلام ← كان من أصحاب الصّبر على البلاء؛ وهذا نبيّنا.
- ✓ ويوسف عليه السّلام ← كما هو واضح كان مستجمعا لهاتين الحالتين؛ ونبيّنا قد جمع بينهما.
- ✓ وموسى عليه السّلام ← كان صاحب الشّريعة القويّة الّتي فيها مُعجزات ظاهرة؛ ونبيّنا صلّى الله عليه وسلّم الأمر ظاهر في حقّه.
- ✓ وزكريّا ويحيى وعيسى وإلياس عليهم السّلام ← كانوا من أصحاب الزّهد؛ ونبيّنا صلّى الله عليه وسلّم قد ضرب المثل الأعلى في هذا الشّأن.
- ✓ وإسماعيل عليه السّلام ← كان من أصحاب الصّدق **{إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا}**[2] كما سيأتي في سورة مريم؛ والنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم مثال في ذلك.
- ✓ ويونس عليه السّلام ← صاحب التّضرّع؛ والنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم كما في غزوة بدر قد وقع رداؤه من على ظهره من شدّة توسّله وتضرّعه

[1] [الأنعام: ٩٠]

[2] [مريم: ٥٤]

وذكر جميع هؤلاء أصحاب الخصال المحمودة، والشّرف أفرادا، أُمر النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بأن يَقْتَدِي بهم بأسرهم، وهو صلّى الله عليه وسلّم قد جمع من خصال العُبوديّة والطّاعة كلّ الصّفات المُفرّقة فيهم، ومن قرأ سيرته وجد أنّه صلّى الله عليه وسلّم قد اجتمع فيه من خِصَالِ الخير ما كان متفرّقا فيهم بأَسْرِهِمْ، ومتى كان الأمر بهذه الصّورة كان هو أفضلهم صلّى الله عليه وسلّم.

هذا ما نعتقده مهما بذل الخاسئون، الكافرون، الفاسقون، عليهم من الله ما يستحقّون، مهما بذلوا لتشويه صورة نبيّنا صلّى الله عليه وسلّم، وفي استعمال كلّ وسيلة كلّما أتى زمان للإساءة إلى نبيّنا صلّى الله عليه وسلّم، وهذا بحر ما يضرّه صلّى الله عليه وسلّم في سيرته أن يُلقي في بحر فضائله أهل الباطل شيئًا من قذاراتهم، فإنّ الماء إذا زاد عن قُلّتين بقي طاهرًا ما تضرّه النّجاسات فما بالكم ببحر الصّفات الكاملة هل يضرّه نبيّنا صلّى الله عليه وسلّم.

لكن ليس هناك احترام لمقامات النّبوّة، وليس هناك احترام للإنسانيّة، وفي الحقيقة ليس بعد الكفر ذنب وأنتم ترون أنّهم يسكتون زمنًا ثمّ يعيدون الإساءة إلى نبيّنا صلّى الله عليه وسلّم، ما تفهمين إلاّ أنّهم مقهورون من عظمة هذا الرّسول صلّى الله عليه وسلّم ومن انتشار دينه.

نسأل الله عزّ وجلّ أن يزيدهم غيظًا، وأن يذهب بما يملكون حتّى يكون تحت مُلْكِ المسلمين فينشروا به الدّين وتنتفع بهم الخَلِيقَةُ.

إذن فهمنا أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قد أُمِرَ أن يهتدي بهداهم، وأن يُبلّغ الشّريعة، وأن يكون سَيْرُهُ وسَيْرُ أمّته على هذه الطّريقة _ طريقة التّوحيد _ علمًا واعتقادًا ومدافعةً ونشرًا؛ رَضِيَ من رَضِيَ وَسَخِطَ من سَخِطَ.

وبهذا علمنا مكانة إبراهيم عليه السّلام وعلمنا مكانة نبيّنا أيضًا، فإبراهيم عليه السّلام قد أحسن الله عزّ وجلّ إليه بعد أن أعطاه الحُجَّةَ، والدّليل على قوله، وأحسن إليه بأن عوّضه عن قومه لمّا اعتزلهم بهذه الذّرّيّة المُباركة، فذُكِرَ إسحاق ويعقوب وَلَدًا، وَوَلَدَ الوَلَدِ، يعني: بُشّر به.

وتصوّروا أنتم رجلا طعن في السِّنّ وَأَيِسَ، جاءته الملائكة تبشّره بأنّ له نَسْلاً وعَقِبًا **{فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ}** ويولد لهذا الوَلَدِ مولودا أيضًا فتقرّ أعينكما به، فكما تقرّ[٢] بوالده تَقِرُّ بحفيدكما أيضًا، فكان هذا الجزاء لإبراهيم عليه السّلام حين اعتزل قومه وتركهم ونزح عنهم وهاجر من بلادهم من أجل التّوحيد، عوّضه الله عن قومه وعشيرته بأولاد صالحين من صُلبه، على دينه، لتقرّ بهم عينه.

[١] [هود: ٧١]

وقد تبيّن لنا أنّ نوحًا عليه السّلام كان قبله والمقصود أنّ شرف الوالد يتعدّى إلى الولد.

هذا كلّه كما اتفقنا بسبب ماذا؟ بسبب مقاماته في التّوحيد، بسبب قيامه بنُصرَة التّوحيد، وبدحض الشّرك، فأتاه الله الحُجَّةَ، وجعله عزيزًا في الدّنيا حسبًا ونسبًا، أصلاً وفَرعًا، فَوَلَّدَ من نوح ووُهبت له الذّريّة الطّاهرة، وقيل لنبيّنا الّذي هو أيضًا من نسل إبراهيم، اقتدِ بهؤلاء.

فإذًا الآن فهمنا ما لإبراهيم من مكانة أتى خَبرها بعد هذه المُحَاجَّةِ، الآن نقول ما نستطيع في المُحَاجَّةِ، وإن شاء الله ربّنا يُيسّر غدًا ونُكمِلُ أيضًا في مُحَاجَّةِ إبراهيم:

{وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آَزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آَلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٧٤) وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ[٣]

بدأت هذه المُحاجة بقوله تعالى: **{وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آَزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آَلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}** ونحن قد مرّ معنا أنّ الله قد أمر نبيّه صلّى الله عليه وسلّم وهو يُخاطب **{الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا}** أن يتركهم، وأن يُناقشهم في أنّه لا يُمكن أن تكون الدّنيا أتت لمجرّد أن تعيش فيها وتنتهي! وتنتفع من منافعها وتذهب! ويبقى الظّالم ظالمًا! والمظلوم مظلومًا! ويبقى المُحسن بلا جزاء! والمُسيء بلا عقاب! هذا معناه أنّ هذه الدّنيا لعب ولهو ما لها قيمة!

فأمر الله تعالى نبيّه صلّى الله عليه وسلّم أن يَذكر للّذين اتّخذوا دين النبيّ صلّى الله عليه وسلّم هزوًا ولعبًا موقف إبراهيم عليه السّلام، وهم يزعمون أنّهم على دين إبراهيم ويفتخرون بذلك، فكأنّه يُقال: اسمع ماذا قال إبراهيم لأبيه، فبدأت بحكاية الموقف بين إبراهيم عليه السّلام وبين أبيه، فقال مُنْكِرًا له: **{أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا}** يعني صُوَرًا أنت تصنعها **{آَلِهَةً}** فبعد أن تصنعها بيدك تجعلها إلهك الّذي تُعظّمه؟ وتجعلها متّصفة بصفات تستحقّ معها أن تُسأَل وتُعبَد؟ فكيف تكون مصنوعة وتتّصف بصفات الصّانع؟ كيف تكون هي عاجزة عن النّفع والضُرّ، خالية من الحياة والسّمع والبصر، ويُطلب منها النّفع ودفع الضُرّ؟ وكيف تُنادَى وهي لا تسمع؟ فقال له: **{إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}** فالمقصود أنّكم لستم على الطّريقة المقبولة، بل هذه هي طريقة من ضلّ عن الطّريق وابتعد، فلابدّ أن يهلك.

---

[١] [الأنعام: ٧٤_٧٥]

[١] [الأعراف: ٥١]

وسيأتي الآن كلام إبراهيم عليه السّلام على ذكر الحُجَّة العقليّة بفساد عَبَدة الأصنام، لكن هو لن يتكلّم هنا عن الأصنام، فقد اتّفقنا بأنّ الأصنام الّتي في الأرض عندهم، إنّما هي رمز للكواكب في السّماء، فقال الله عزّ وجلّ: {وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ} ملكوت السّماوات والأرض هذا الشّأن العظيم، المُلك العظيم والسّلطان القاهر {نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ} وما فيهما من عجائب وبدائع، وهذه الأمور لابدّ أن تزيد الإيمان وتوصل الإنسان إلى اليقين.

فالله عزّ وجلّ قد أطلعه، فرأى بِبَصَرِهِ وَبَصِيرَتِهِ ما اشتملت عليه السّماوات والأرض من الأدلّة القاطعة والبراهين السّاطعة، فأصبح ينظر لها ويُفكّر ويزداد دلالة، ولذلك كان من المُوقنين، أين وجه اليقين؟ قيام الأدلّة يعني: أصبح هو صاحب عقيدة ويستطيع أن يدافع عنها، لأنّه كلّما زاد يقين الإنسان استطاع أن يُدافع عمّا تيقّن به.

والمعنى أنّ الإنسان الحمد لله يكون مؤمنًا، موحّدًا، يعرف الحقّ، وهذا من فضل الله، لكنّه لا يتصوّر كيف ما حوله يدلّ على اعتقاده؟ وهذا لا يشكّك في توحيده لكنّه لم يُمحّض نفسه لهذه المهمّة العظيمة، أو لم يهتمّ بأن يزيد يقينًا مع أنّه أولوا الألباب يتفكّرون في خلق السّماوات والأرض ويخرجون بهذه النّتيجة المهمّة: {رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا} فيزدادوا يقينًا.

لكن يكون بعض النّاس متيقّنا ومؤمنًا، يعرف ربّنا فيشعر أنّه ليس مسؤولًا وليس مطلوبًا منه أن يجعل كلّ ما يمرّ عليه دليلًا على عظمة الله، وهذا ربّما من عدم انشغال النّاس بالتّوحيد، يعني: بالتّفكير فيه، وطمأنينتهم بما معهم، أو يكون بسبب أنّ هذا الأمر لم يُدَرَّبُوا عليه، يعني: ما أُكِّدَ على الطّريقة الصّحيحة للاستدلال بالدّليل الّذي يمرّ عليهم، أو ما عرفوا من أسماء الله وصفاته وأفعاله ما يسمّوا به ما حولهم من الأحوال، فإنّ الجهل لابدّ أن تكون نتيجته قلّة فهم، أو قلّة تفسير ما يدور حولنا.

فمثلا نفترض أنّ رائي يرى حركة الشّمس، ويُراقبها فيجدها تتحرّك بطريقة منتظمة طول العام، ومن السّنة القادمة تتحرّك بنفس الطّريقة، فيشعر في نفسه أنّه ينزه الله ويقول : سبحان الله ! لكنّه لا يستطيع أن يقول: أنّ هذا الانتظام يدلّ على التّسخير، ويدلّ على أنّ ربّنا حكيم، وأنّ الله يضع الأشياء في موضعها، ويدلّ على أنّها غير قادرة على أن تفعل الفعل، فهي ليست فاعلة وإنّما هي مفعول بها، بمعنى: أنّه قد يتصوّر الحقائق لكن لا يعرف لها أسماء، أو لا يعرف كيف يستدلّ بها، بالمقابل أنّه لو تعلّم وعرف من أسماء الله وصفاته وأفعاله، فإنّ **النّتيجة تكون أنّه لو رأى الآيات استفاد منها، ووصل إلى اليقين في نفسه، وإلى الاستدلال بها على غيره.**

يكون هذا إن شاء الله موضوعنا غدًا في الكلام حول استفادة إبراهيم عليه السّلام من هذه الأدلّة القَطعيّة والبراهين السّاطعة، الّتي رآها في السّماوات والأرض وكيف استخدمها على قومه؟ وكيف استشهد بها؟ وبيّن الحقّ من الباطل.

---

[١] [آل عمران: ١٩١]

نسأل الله بمنّه وكرمه أن ييسّر لنا أمورنا ويقبل منّا أعمالنا ويغفر لنا التّقصير وأن يعطيكم أجر الصّبر على العلم.

سبحانك اللّهمّ وبحمدك أشهد أن لا إله إلاّ أنت أستغفرك وأتوب إليك.

السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته